الرابط المشترك بين اللذّة والألم

المتربوليت يروثيوس من نافباكتوس

نقلتها إلى العربية الخورية جولي عطية عيسى

قرأتُ كتابًا مهمًّا عنوانه "الألم: الهديّة التي لا يريدُها أحد"، وهذا الكتاب يُظهر قيمة الألم في الحياة البشريّة. المؤلّف اسمه بول براند، وهو طبيبٌ وُلدَ في الهند في العام ١٩١٤ لوالدَين مبشّرَين. درس في إنكلترا، وعمل طبيبًا في الهند مع البُرص. كان "رائدًا في معالجة البَرَص في الهند"، و"برهن أنّ غياب الإحساس بالألم هو ما سبَّبَ التشوُّهات المرافقة للبرَص. وأثبت لاحقًا هذه النتائج في الولايات المتّحدة على مرض السكّري وأمراضٍ أخرى. إنّ هذا الاكتشاف المهمّ قاده إلى الاستخلاص أنّ الألم يجب ألّا يُسكّن، وليس ذلك فحسب، بل أنّه واحدٌ من طرائق التواصل الأكثر فعاليّة في الجسم".

عنوان أحد فصول كتابه هو "اللذّة والألم"، ويسرد فيه الكثير من أفكاره المثيرة للاهتمام، حول اللذّة والألم كتوأمان.

في بداية هذا الفصل، يشير إلى رأي جيريمي بِنتهام مؤسّس جامعة لندن: "وضعَت الطبيعة البشرَ تحت سلطة سيِّدَين، الألم واللذّة. لهما وحدهما أن يقرّرا ما علينا أن نفعل، وأن يحدّدا ما يجب أن نصنع". ثمّ يقول: "لقد انتقدتُ المجتمع الحديث لأنّه يسيء فهم الألم، لأنّه يكتمه بدلًا من الإصغاء إلى رسالته. أتساءل إذا ما كنّا قد أسأنا أيضًا فهمَ اللذّة".

يحلّل بول براند هذا الموضوع، فيكتب قائلًا: "بالحسّ الطبّي، أميلُ إلى الأخذ أوّلًا بوجهة نظر الجسد عندما أحلّل إحساسًا ما. لقد شدّد فرويد على "مبدأ اللذّة" كمحفّزٍ أوليّ للسلوك البشريّ. أمّا عالِم التشريح فيرى أنّ الجسد يركّز أكثر على الألم. فكلّ بوصة (إنش) مربّعة من الجِلد تحتوي على آلاف أعصاب الألم والبرد والحرّ واللمس، ولكنّها لا تحتوي على أيّة خليّة لذّة. ليست الطبيعة فاسقة إلى هذا الحدّ، بل إنّ المتعة تَنتج كشيءٍ تابع، كجهدٍ تصنعه العديد من الخلايا المختلفة التي تعمل معًا في ما أسمّيه 'نشوة المجموعة'".

أخيرًا، يؤكّد أنّ اللذّة والألم توأمان، ولكنّهما يختلفان الواحد عن الآخر. إنّهما يحدثان في عقلنا، ويعتمدان جزئيًّا على " تقارير أعضاء الحواسّ".

ويستشهد بتعريفٍ من قاموس أكسفورد الإنكليزيّ ليَصف الألم واللذّة، والذي بِحسبِه اللذّة "تنتج من التمتُّع بما يُعدُّ جيّدًا أو مرغوبًا فيه، أو من توقّعه... على عكس الألم". ويذكر أنّه كان معظم حياته يصنّف "المتعة على أنّها نقيض الألم" ، بما يتماشى مع قاموس أكسفورد الإنكليزيّ. إلّا أنّه بسبب بحثه اللاحق، توصّل إلى استنتاجٍ مفاده أنّ أفضل مَن يعبّر عن الحقيقة حول العلاقة بين اللذّة والألم هو ليوناردو دافنشي، فنّان عصر النهضة الذي رأى الأشياء على نحوٍ مختلف.

في الواقع، رسم هذا الرسّام الشهير في دفاتر ملاحظاته "ذكرًا واحدًا ينقسم إلى قسمَين عند البطن: إلى جذعَين، ورأسَين ملتحيَين، وأربعة أذرع، مثل التوائم السياميّة الملتصقة عند الخصر. وسمّى دراسته "رمزٌ

للذّة والألم"، معلّقًا: "تُصوَّر المتعة والألم كتوأمان، كما لو أنّهما ملتصقان بعضهما ببعض، إذ لا يوجد الواحد من دون الآخر... جُعل ظهرُ كلٍّ منهما على ظهر الآخر لأنّهما يتعارضان في ما بينهما. إنّهما ينموان من الجذع نفسه لأنّ لديهما الأساسَ نفسه. فأساس المتعة هو التعب بألم، وأساس الألم هو الملذّات الفاسدة والفاسقة".

إذًا، اللذّة والألم لهما الجذر نفسه، ويتناوبان في حياتنا. يستخدم بول براند أمثلةً مختلفةً من العلوم الطبيّة ليُصوّر هذا الرابط المشترك بين الألم واللذّة، بما في ذلك نتائج استهلاك السكّر المكرّر. فهذا السكّر غير موجود في الطبيعة، وهو منتجٌ صناعيٌّ معالَجٌ على نحوٍ مركّز، يسبّب مشكلاتٍ طبيّةً لا حصر لها.

نرى الأمر نفسه في المجتمع، لأنّ أشكال الاستمتاع المتنوّعة تسبّب مشكلاتٍ جسديّة. ويحدث هذا الأمر أيضًا لمَن "يجلسون في مقاعد المسرح المخمليّة يشاهدون فيلمًا". هذه المغامرات الكاذبة لا تُشعر الإنسان بالرضى، على الرغم من أنّها تُنتج آثارًا جانبيّةً يمكن للأطبّاء ملاحظتها، مثل "تعرُّق راحة اليد، وسرعة ضربات القلب، وتشنُّج العضلات، وارتفاع الأندرينالين".

والأمر واضحٌ أيضًا في تعاطي المخدِّرات. كتب بول براند قائلًا: " يُظهر تعاطي المخدِّرات الاستنتاجَ المنطقيّ الذي يقول إنَّ ثمّة شعورًا خاطئًا بالمتعة، لأنّ المخدِّرات غير المشروعة تمنح الوصولَ المباشر إلى مركز المتعة في الدماغ. وليس من المستغرب أنّ المتعة قصيرة الأمد، التي تنتج من هذا الوصول المباشر، تُنتج البؤس الطويل الأمد". يشير إلى رأي الكاتب دان ويكفيلد الذي قال:

"لقد استخدمتُ المخدِّرات بالطريقة التي يستخدمها بها معظم الناس، كما أعتقد، لا من أجل الشعور بالمتعة أو البريق، كما هو معتاد، بل من أجل التخلُّص من الألم، ألم ذلك الفراغ الداخليّ أو النفسيّ... المفارقة هي أنّ الموادّ ذاتها -المخدِّرات أو الكحول- التي يستخدمها المرء لتخدير الألم، بهذه الطريقة الكيميائيّة الاصطناعيّة، لها تأثير حقيقيٌّ في توسيع الفراغ الذي يسعون إلى ملئه. فتكون هناك حاجةٌ دائمةٌ إلى المزيد والمزيد من الخمر والمخدِّرات، في سعيٍ لا ينتهي لملء الحفرة التي تزداد حتمًا بسبب الجهود المتزايدة للقضاء عليها".

هذا الرابط المشترك بين اللذّة والألم مألوفٌ لدى آباء كنيستنا، وهو أساس النُّسك الأرثوذكسيّ. يمكننا أن نجد ذلك في كتابات الآباء كلّها، ولكنّني سأشدّد هنا بالأكثر على تعليم القدّيس مكسيموس المعترف، وهو قدّيسٌ من القرن السابع، أدّى دورًا أساسيًّا في قضايا عصره، ولكن أيضًا في كلّ عصر.

في نصوصٍ مختلفةٍ تتكلَّم على اللاهوت، والتدبير الإلهيّ، والفضيلة والرذيلة، يشير القدّيس مكسيموس، من بين أمورٍ أخرى، إلى العلاقة المتبادلة بين اللذّة والألم. سنشير هنا بإيجازٍ إلى ذلك، حتّى نتمكّن من رؤية أنّ آباء الكنيسة حديثون جدًّا فيما يتعلّق بهذا الموضوع، لأنّهم يتطرّقون إلى مشكلاتِ البشر الوجوديّة الخالدة.

يبدأ القدّيس مكسيموس بالإشارة إلى حقيقة أنّ الله، عندما خلق الطبيعة البشريّة، "لم يجعل الحواسّ قابلةً للمتعة أو الألم. بدلًا من ذلك، زرع فيها قدرةً نوسيّةً معيّنة، يمكن للبشر من خلالها التنعُّم به بطريقةٍ يتعذّر وصفها". هذا هو "الشوق الطبيعيّ للنوس إلى الله". ومع ذلك، لم يتبع الإنسان هذه الحركة الطبيعيّة للنوس نحو الله، بل اتّبع الاتّجاه المعاكس. لقد حوّل هذه الحركة نحو الحواسّ، واكتسب غريزةً أوليّة، وهي "اللذّة التي تعمل فيه من خلال الحواسّ، بطريقةٍ تتعارض مع الطبيعة". ثمّ إنّ الله، الذي يهتمّ بخلاصنا، "زرعَ الألم

بجانب اللذّة كنوعٍ من قوّةٍ توبيخيّة". لقد قام بتجذير "قانون الموت في الجسد، وبالتالي وضع حدودًا للشوق الهوسيّ للنوس، الموجَّه، بطريقةٍ تتعارض مع الطبيعة، نحو الأشياء الحسّيّة".

إذًا، "لم تُخلق اللذّة والألم مع الجسد في وقتٍ واحد. على العكس، السقوط هو الذي اخترع المتعة، لإفساد قدرة الإنسان على الاختيار (الحريّة)، ما جلب له أيضًا، عن طريق التوبيخ، الألمَ الذي يؤدّي إلى فساد طبيعته. هكذا، وبسبب اللذّة، أصبحت الخطيئة موتَ النفس المختار بحريّة. وأدّى الألم، عن طريق هذا الفساد، إلى تحلّل الجسد".

هذا يعني أنّه بعد "متعةٍ لا معنى لها ... اكتسب الدخولَ أيضًا ألمٌ مفيد، في أشكالٍ متعدّدةٍ من المعاناة. في هذه العذابات، ومنها، يأخذ الموت أصله. مثل هذا الألم يطرد المتعة غير الطبيعيّة" . وبهذه الطريقة، فإنّ "ابتكار الآلام الطوعيّة (أي النُّسك)، والانقضاض على أولئك الذين يأتون من دون طلب (بتعبير آخر، المرض والموت)، يطرد المتعة ويهدّئ من قوّتها"، ولكن من دون تدمير "القدرة على المتعة التي تكمن في الطبيعة البشريّة كقانونٍ طبيعيّ". كلّ متعة "غير طبيعيّة" تتبعها "معاناة طبيعيّة".

نرى هذا في الطريقة التي يولد بها البشر، حيث تأتي المتعة أوّلًا ويتبعها الألم. "بعد السقوط، صارت ولادة الجميع مسبوقةً على نحوٍ طبيعي بالمتعة، ولم يكن أحد على الإطلاق متحرراً بالطبيعة من ولادة فيه جياشة بالعاطفة والمتعة. على العكس، كما لو كان الجميع يفون دينًا طبيعيًّا، خضعوا للمعاناة والموت الذي يأتي من هذه الولادة". "اللذّة الظالمة والمعاناة التي تستحقّها عن جدارة، أدّت إلى تحلّل الإنسان على نحوٍ يُرثى له، لأنّ حياته تبدأ في الفساد الذي يأتي من ولادته باللذّة، وتنتهي بالفساد الذي يأتي من الموت". ولأنّ آدم "أدخل شكلَ الولادة هذا الذي هو ظالمٌ والناتج من المتعة، فقد جلبَ باستحقاقٍ على نفسه، وعلى جميع المولودين في الجسد منه، هلاكَ الموت من خلال المعاناة". " بعد السقوط، صارت الحياة البشريّة تولد عن طريق حملٍ ناتجٍ من المتعة، وولادةٍ عبر حيوانات الأب المنويّة. وتنتهي بموتٍ مؤلمٍ من خلال الفساد".

لم يستطع البشر تحرير أنفسهم من الرابط بين اللذّة والألم، وعانوا كثيرًا. جلب المسيح الشفاء بالطريقة التي وُلد بها كإنسان، وبموته. لقد وُلد المسيح "ولادةً لم تنتج من المتعة (من دون بذرة أبٍ بشريّ وتدخُّلٍ منه)، لتحرير الجنس البشريّ من الولادة التي جاءت من الإدانة". "في محبّته، قَبِلَ طوعيًّا الموتَ المؤلم الذي، بسبب المتعة، ينهي الحياة البشرية، حتّى يتمكّن، من خلال العذاب ظلمًا، من إلغاء الأصل الذي يسود هذه الحياة، الأصل الظالم الناتج من المتعة". بتجسُّد المسيح تغيّر كلُّ شيء، "لأنّه كما أنّ حياة آدم في اللذّة ولدَت الموت والفساد، هكذا كان موت الربّ من أجل آدم، متحرّرًا من اللذّة التي نشأت في آدم، هو مصدر الحياة الأبديّة".

بسبب ولادتنا ، نحن عرضةٌ بشكلٍ طبيعيّ للمعاناة والموت. ولهذا ترتبط المتعة في طبيعتنا بالألم. "لأنّ سيادة اللذّة والألم تسري بوضوحٍ على ما هو سريع التّأثر في الطبيعة البشرية. وعندما تشتدّ عقوبة الألم الطبيعيّة، نسعى لمواساة أنفسنا إلى حدٍّ ما، من خلال المتعة. وذلك لأنّنا، رغبةً منّا في الهروب من الألم، نبحث عن ملجأ في المتعة، فنحاول أن نجلب الراحة لطبيعتنا المضغوطة بشدّةٍ بسبب عذاب الألم". ويوضح ذلك مَثَلُ الجرح. فألم الجرح يدفعنا إلى خدشه، ما يجلب لنا المتعة، لكنّ الألم يزداد. ونلاحظ الأمر نفسه في المشروبات

والمخدِّرات. نحن نشرب لتهدئة الألم، لكنّ هذه المتعة الجديدة تجلب ألمًا جديدًا. "من خلال المحاولة بهذه الطريقة لتخفيف الألم بالمتعة، فإنّنا ببساطةٍ نزيد من مجموع ديوننا، لأنّنا لا نستطيع الاستمتاع بالمتعة خاليةً من الألم والمعاناة".

وبما أنّ ميلاد المسيح لم يرتبط بالمتعة، وتحمَّل الألم طوعًا من أجل هزيمته، فقد أعطى البشر القدرة على الانتصار على كلٍّ من اللذّة والألم. نرى هذا في القدّيسين المتّحدين بالمسيح. "إنّ لذّة التوليد الموروثة عن آدم لم تعُد نشِطةً في داخلهم، بل فقط الألم الذي نشأ بسبب آدم، والذي يجلب لهم الموت، ليس كدَينٍ عن الخطيئة يتوجّب دفعه، ولكن بحسب التدبير الخلاصيّ، بسبب حالتهم الطبيعيّة، بهدف تدمير الخطيئة. لأنّه عندما لا يولد الموت من تلك اللذّة التي يكون توبيخها وظيفتَها الطبيعيّة، فإنّه يلد الحياة الأبديّة. لأنّه كما أنّ حياة آدم في اللذّة ولدت الموت والفساد، هكذا موت الربّ من أجل آدم، كونه حرًّا من اللذّة التي نشأت في آدم، هو مصدر الحياة الأبدية".

من الواضح أنّ البشر، منذ السقوط، يتحرّكون بين هاتين الواقعتين: المتعة والألم. اللذّة تُسبّب الخطيئة وتُبعدهم عن الله، ثمّ يأتي الندم، والشعور بالذنب، وأحيانًا الأمراض الجسديّة. بعد ذلك، من أجل الهروب من الألم والمعاناة، يتجرّعون عيّنةً أخرى من المتعة، لكنّ هذه المتعة الجديدة تُنشئ ألمًا جديدًا لا يُطاق، ومن أجل التعامل مع هذا، يُقادون نحو متعةٍ جديدة. ويستمرّ هذا الوضع، ما يخلق حلقةً مفرغة. إنّ المسيح، من خلال تجسُّده، مكّننا من التحرُّر من حلقة اللذّة والألم المفرغة هذه. لقد اتّخذ جسدًا فانيًا وقابلًا الموت، خاليًا من الخطيئة أو المتعة، من أجل أن يشفي اللذّة والألم.

إنّ تقليد الكنيسة يتمثّل في هذا التسامي للرابط المشترك بين اللذّة والألم. إنّها ليست مسألة حظر وحرمان، بل تحرير الناس من هؤلاء التوائم السياميّة. وفقًا للتقليد الآبائي، كما عبّر عنه القدّيس مكسيموس المعترف، إنّ تطهير القلب يتغلّب على اللذّة والألم. ثمّة مقطعٌ يكتب فيه أنّ الشخص الذي قد حرّر جسده من اللذّة والألم، قد حقّق فضيلةً عمليّة. الشخص الذي طرد النسيان والجهل من روحه، قد بلغ الثيوريّا الطبيعية (المعاينة). والشخص الذي قد حرّر نوسه من الانطباعات الكثيرة، أي من الصور والأوهام، قد اكتسب سرّ اللاهوت.

داخل الكنيسة، من الممكن لنا، من خلال اللاهوت والأسرار المقدّسة والنُّسك، أن نقطع الصلة بين اللذّة والألم، وأن نعالج اللذّة، وأن نتحمّل التجارب والمعاناة والأمراض والخوف من الموت، ولكن أيضًا أن نبلغ حالاتٍ روحيّةً ساميةً تحرّر الشخص من الروابط كلّها، وتجعله حرًّا.

يقول القدّيس مكسيموس مفسّرًا الصلاة الربانيّة، وتحديدًا التماس "ولا تدخلنا في تجربة"، أنّ هناك نوعين من التجارب، أحدهما مُمتعٌ والآخر مؤلم. النوع الأوّل الذي هو مُمتع، هو نتيجةٌ لاختيارنا المتعمّد وحريّتنا. إنّه طوعيّ لأنّنا نريد الاستمتاع به. أمّا النوع الآخر، الذي هو مؤلمٌ ومرتبطٌ بالأمراض والموت، فهو غير طوعيّ، لأنّنا لا نريده، لكنّه يأتي إلى حياتنا. التجربة الممتعة تلد الخطيئة، في حين أنّ التجربة المؤلمة، عندما نتحمّلها بصبر، تشفينا من الخطيئة.

سأنهي من حيث بدأت، بعنوان كتاب بول براند، "الألم: الهديّة التي لا يريدها أحد" . إنّ الألم الجسديّ والنفسيّ والوجوديّ هو هبةٌ من الله للبشر. إنه هبة الله للحالة الساقطة التي نجد أنفسنا فيها. وهو مرتبطٌ بـ"الأقمصة الجلديّة" التي لها وظيفةٌ مزدوجة: فهي جزءٌ من حالتنا الساقطة، لكنّ الله باركها، ويمكننا التغلُّب عليها بمساعدته. كلُّ نوعٍ من المعاناة يجلب إمكانيّة إعادة الولادة. تمامًا كما تعاني المرأة الألم في أثناء الولادة، ولكنّ هذا الألم يؤدي إلى ولادة حياةٍ جديدة. كلُّ نوعٍ من الألم يؤدّي إلى الولادة، إذا كنّا قادرين على الاستفادة منه جيّدًا.

هذه هي الطريقة التي يجب أن نفسّر بها عبارة دوستويفسكي الكلاسيكيّة "أنا أعاني إذًا أنا موجود"، والتي يمكن ربطها بقول القدّيس سلوان الآثوسيّ: "أنا أحبُّ إذًا أنا موجود". ويمكن مقارنة العبارتين بعبارة ديكارت: "أفكّر إذًا أنا موجود". لا يتمّ تعريف الوجود البشريّ على نحوٍ مطلق بالعقل، بل يتمّ التعبير عنه من خلال التغلُّب على الألم واختبار المحبّة. يشير موقفنا من هذه الأقوال الثلاثة إلى مستوى ثقافتنا ونمط الحياة السائد فينا.

Source: His Eminence Metropolitan Hierotheos of Nafpaktos and St Vlassios. The Mutual Link between Pleasure and Pain. https://www.parembasis.gr/index.php/6725-2021-01-28-en

[1] Dr Paul Brand and Philip Yancey, Ponos, ena doro pou kanenas den thelei, trans. Antonis Papaiannis, University Studio Press, Thessaloniki, 2006; Pain: The Gift Nobody Wants, HarperCollins, Zondervan, New York 1993, (repr. as The Gift of Pain 1997)

[2] Maximus the Confessor, 'Pros Thalassion', Philokalia ton Ieron Niptikon, vol. 2, 6th Century, (33), pub. Perivoli tis Panagias, Thessaloniki 2006, p. 215; cf. 'Various Texts on Theology, the Divine Economy, and Virtue and Vice', 4th Century (33) in The Philokalia, vol. 2, trans. G. E. H. Palmer, Philip Sherrard, Kallistos Ware, Faber and Faber, London 1981, p. 243